الحكمة في القرآن الكريم

الشيخ عبد الله جوادي الآملي(*)

ملخص البحث

يروم الباحث في هذه الورقة البحثية في تجلّيات الحكمة في القرآن الكريم كونها توصف بخيرٍ كثيرٍ؛ فهدف إلى بيان المراد من هذا الخير الكثير، وشرحه، وبيان موارده، والمَيْز بينه وبين غيره من أقسام العلوم والفنون، أو الأعمال والمَلَكات؛ وتضمن البحث الوقوف عند معنى الحكمة ودلالتها والمعاني المجاورة لها إلى جانب الوقوف عند دلالة (الحكمة خيرٌ كثيرٌ) كونها تحمل معاني متعدّدةً، كذلك أثر البحث الوقوف عند (التميز بين الحكمة والمُلك)، يزاد على ذلك بيان (من أُوتي الحكمة) سواء كانت مختصّةً بالأنبياء أو بغيرهم، وإيجاد الفارق بين الحكمة العلميّة، والحكمة العمليّة التي وهبها الله تعالى للأنبياء. فبيّن الباحث أنّ الحكمة كوثرٌ، وأنّها نحو علمٍ خاصٍّ بمعلومٍ خاصٍّ، وأنّها علميّةٌ وعمليّةٌ، وأنّها متمايزةٌ عن قسيميها من: الموعظة الحسنة، والمجادلة الحسنة.

(*) أحد مراجع التقليد، وأستاذ بارز في الحوزة العلميّة في مدينة قم الإيرانيّة، ومن أشهر الباحثين في الفلسفة الإسلاميّة.

مقدمة

الحمد لله العليم الحكيم الّذي يُؤتي الحكمة من يشاء، ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثيراً...﴾[1].

وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتمهم محمّد وآله أجمعين.

وبعد، فيقول العبد المفتاق إلى مولاه الغني، عبد الله الجوادي الطبري الآملي: هذه وجيزةٌ حول الحكمة في القرآن، ولها مقدّمةٌ، وفصولٌ، وخاتمةٌ.

أمّا المقدّمة: فهي أنّ الحكمة في لسان القرآن – الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه– هي خيرٌ كثيرٌ[2]، قبالة ما عبّر فيه عن الحياة الدّنيا مع ما لها من الزخارف والشهوات ونحوها، بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَليلٌ﴾[3]. فلا وزن للدّنيا في جنب الحكمة، ولا حظّ لها عندها؛ لأنّ تلك خيرٌ كثيرٌ وهذه متاعٌ قليلٌ، فلا جدوى لهذه إلّا التمتّع واللّذة الفانية. وحيث إنّ الله تعالى هو الّذي عبّر عن الحكمة بالخير الكثير، فلا كمال للإنسان إلّا بها، ولا رقّي له إلّا إليها، فالويل لمن أعرض عنها ولم يُرِد إلّا الحياة الدّنيا، ذلك مبلغه من العلم[4] الّذي لا يصحبه العقل. فالمهمّ حينئذٍ بيان المراد من هذا الخير الكثير، وشرحه، وبيان موارده، والمَيْز بينه وبين غيره من أقسام العلوم والفنون، أو الأعمال والمَلَكات وما إلى ذلك في طيّ فصولٍ:

- ١ -

في معنى الحكمة

الحكمة بناء نوعٍ مِن الإتقان المانع عن الوهن والفشل والانثلام والانفصام ونحوها. والجامع من موارد استعمال هذه المادّة بصيغ شتّى هو السَداد والإحكام الّذي لا يتطرّقه شيءٌ ممّا يوجب خلافه، نحو ما يقال لِلِجام الفَرَسِ المانع له عن الجُمُوح: الحَكَمَة، ويقال لِما يوجب إتقان نسبة المحمول إلى الموضوع في القضيّة وصيانتها عن التردّد: حُكماً.

ويقال لِما يوجب فصل الخصومة، وتعيّن المال أو الحقّ لأحد طرفي الدعوى: حُكماً، أيضاً.

ويقال لما يوجب النظم الاجتماعي للناس ويصون المجتمع عن الهرج والمرج: حكومةً.

ويقال للعلم الّذي يكون معلومه ثابتاً لا يزول، وحيّاً لا يموت، وحقّاً لا يبطل، وصدقاً لا يكذب، ومتقناً لا يَفْشَل، ويكون دليله برهاناً لا يتطرّقه الريب، ولا يطرَأه الشكّ، ولا يزول بالمنع ولا بالنقض ولا بالمعارضة: حِكمَةً.

ولعلّ من هذا القبيل توصيف القرآن بأنّه في أُمّ الكتاب لدى الله عليٌّ حكيمٌ[٥].

ويقال للأمر المحكم أو المشتمل على الحكمة: إنّه أمرٌ حكيمٌ[٦].

ويقال للآيات الّتي تكون نصّاً في مداليلها أو ظاهرة فيها كالنصّ بحيث لا اشتباه فيها ولا تشابه: مُحكَماتٍ[٧].

ويقال للسورة المُبيِّنة للمراد بلا سترة ولا تشابه أيضاً: سورةً محكمةً[٨].

وفوق جميع ما ذكر، أنّ من الأوصاف الفعليّة لله المتعالي هو أنّه تعالى حكيمٌ، حيث إنّ علمه تعالى حضور محضٌ لا يعزُبُ عنه شيءٌ[٩]، واقتداره تعالى مشيئةٌ نافذةٌ صرفٌ لا يعجزه شيءٌ، فلذا يذكر هذا الوصف دائماً في القرآن بعد العلم أو العزّة أو السّعة، أو يذكر بعده الخبرة؛ لأنّ العزّة هي الصلابة المانعة عن النفوذ، الموجبة للغلبة، والسعة هو الإحاطة والإطلاق الوجودي ذاتاً وصفةً وفعلاً، فحينئذٍ يضع تعالى جميع الأشياء في مواضعها عدلاً وقسطاً، فلا محالة يكون تعالى حكيماً[١٠].

-٢-

الحكمة خيرٌ كثيرٌ

قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**﴾[١١]، والخير هو ما يختاره العاقل اللّبيب، كما أنّ الشرّ ما يقابله. والخير بلحاظ الغاية والهدف، بخلاف النافع الّذي هو بلحاظ الطريق، كما أنّ الضارّ هو ما يقابله. فما كان له أثرٌ حسنٌ في السير إلى الغاية الّتي هي خيرٌ، يكون نافعاً، كما أنّ ما له أثر سوءٍ في السّلوك إليها يكون ضارّاً. أمّا الكثرة فلا بدّ وأن تكون بلحاظ دوام الخير وعدم نفاده؛ إذ الفاني قليلٌ وإن أعجبتك كثرته الكاذبة، والباقي كثيرٌ وإن خفي على أكثر الناس. ومِنْ هذا القبيل قوله تعالى: ﴿**قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ**﴾[١٢]؛ إذ الخبيث لا قرار له بخلاف الطيّب

الّذي أصله ثابتٌ وفرعه في السماء يؤتي أُكلَه كلَّ حينٍ بإذن ربِّه. والحاصل أنّ الحكمة هدفٌ عالٍ للإنسانِ، وخيرٌ كثيرٌ.

ويجمع هذين الوصفين - أي الخير والكثرة- الكوثر؛ لأنّه الخير الكثير، وإن ذكر له مصاديق شتّى من: العلم، والنبوّة، ودوام النسل، ونحو ذلك، فمن أُوتي الحِكمَة فقد أُوتي الكوثر. وحيث إنّ للحِكمَة درجاتٍ، كذلك يكون للكوثر درجاتٌ، كما أنّ الرسالة أيضاً كذلك، قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ**﴾[١٣]. فأعلى درجات الكوثر لخاتم الأنبياءصلى الله عليه وآله، كما أنّ أفضل درجات الرسالة لهصلى الله عليه وآله أيضاً. ولم ينعت الخير في القرآن الكريم بالكثرة بنحو المَلَكة إلّا في خصوص الحِكمَةِ، حيث إنّها وحدها خيرٌ كثيرٌ بنحو الاتّصاف الثابت. وأمّا قوله تعالى: ﴿**وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فيهِ خَيْراً كَثيراً**﴾[١٤]، فلا مساس له بنحو الاتّصاف.

ثمّ اعلم أنّ الحِكمَة خيرٌ كثيرٌ ودون الخير المحض الّذي لا يمكن أن يتغيّر، فيمكن أن لا يختم عاقبة أمر من أُوتي الحِكمَة بخيرٍ، إذ الأُمور بعواقبها، تدبّر.

توضيحه: إنّ الحكمة ليست كالنبوة خيراً مطلقاً، إذ النبيّ معصومٌ يُختم أمره بالحسنى، أمّا الحكيم فلا يشترط فيه العصمة، فالنبوة خيرٌ مطلقٌ والحكمة خيرٌ كثيرٌ، فكثرة خيريّة الحكمة بلحاظ ما دونها لا ما هو فوقها كالنبوّة.

-٣-

الميز بين الحكمة والملك

إنّ جهة الخير في الحِكمَةِ ليست بمجرّد كونها ممّا يؤتي الله تعالى؛ لأنّه تعالى كما يؤتي الحكمة من يشاء، كذلك يؤتي المُلكَ من يشاء، مع أنّ المُلك قد لا

يصون صاحبه عن العصيان، فلا خير فيه أصلاً، فضلاً عن كونه كثيراً، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذي حَاجَّ إِبْراهيمَ في رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾[١٥]. بل جهة الخير فيها – أي الحكمة– هي كونها في نفسها من المواهب الخاصّة كالرسالة، والنبوّة، والولاية، والإمامة الحقّة، وما إلى ذلك، الّذي لا يناله إلّا الأوحدي من البشر الّذي يكون الله تعالى أعلم به. ولذا ترى الّذي أُوتي المُلك أو الكنز أنّه يقول كما يحكي الله تعالى: ﴿قالَ إِنَّما أُوتيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدي﴾[١٦]، فهو ذاهلٌ عن مولاه الّذي آتاه المُلك أو الكنز، بخلاف من أُوتي الحكمة فيرى أنّ الله تعالى هو الّذي وهبها إيّاه؛ لأنّ «رأس الحكمة مخافة الله»[١٧]، فكيف ينسى الحكيم مولاه الّذي يخاف مقامه؟! فهو ينهى نفسه عن هواها[١٨]؛ لأنّ في هواها رداها.

أضف إلى ذلك أنّ الحكمة كوثرٌ ممدوحٌ، والمُلك قد يوجب التكاثر المذموم، والأوّل ذكره تذكرةٌ، والثاني لهوٌ وإلهاءٌ. فلا خير في المُلك من حيث إنّه مُلك؛ إذ يناله البَر والفاجر، بخلاف الحكمة؛ لأنّها في نفسها كوثرٌ، فلا يناله إلّا من أخلص دينه لله.

ـ٤ـ

في بيان من أوتي الحكمة

لقد آثر الله تعالى من عباده بعض من يشاء أن يهبه الحكمة ويؤتيها إيّاه، إذ إنّه تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، ﴿وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ﴾[١٩]. ومن هؤلاء الّذين مَنّ الله عليهم بإيتاء الحكمة هم الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى[٢٠]: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ﴾[٢١] الآية، وقال تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهيمَ الْكِتابَ والْحِكْمَةَ﴾[٢٢]، فكلّ نبيٍّ حكيمٍ قد

أُوتي الحكمة، وهي الخير الكثير، فقد أُعطي الكوثر، إلّا أنّ درجاته متفاوتةٌ، على وزان درجات النبوّة ومراتب الحِكمَةِ، كما تقدّم.

ومن هؤلاء الّذين مَنّ الله عليهم بإيتاء الحِكمَةِ وصرّح باسمه في القرآن هو داوود، كما قال تعالى: ﴿وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وآتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ والْحِكْمَةَ﴾[٢٣]، ولقمان، كما قال تعالى: ﴿وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ﴾[٢٤]، وغيرهما ممّن يعثر عليه المتتبّع. وحيث إنّ درجات الحكمة متمايزةٌ، فيمكن أن ينال بعضها من ليس بنبيٍّ، كما ورد في شأن لقمان[٢٥]، فالأنبياء حكماءُ، ولا عكس. وحيث إنّ النبوّة هبةٌ خاصّةٌ لا يمكن نيلها بالتعلّم، ولا يمكن الوصول إليها بالدراسة، بخلاف الحِكمَةِ، فلذا أُمر الأنبياء بتعليم الناس الكتاب والحكمة[٢٦] دون النبوّة، مع أنهم قد نالوا الحكمة بالوحي أيضاً، كما نالوا الكتاب والنبوّة به. فلا طريق فكريّ إلى نيل المواهب الخاصّة كالنبوّة والرسالة والإعجاز، بخلاف الحكمة حيث إنّه يمكن نيلها بالبحث والفكر، كما يمكن نيلها بالحضور والإخلاص. نعم، للولاية الّتي من آثارها الكرامة مجالٌ لسنا الآن بصدده.

-٥-

في الحكمة الّتي جاء بها الأنبياء وعلّموا الناس إيّاها

إنَّ الحكمة الّتي جاء بها الأنبياء ودعوا الناس إليها على قسمين: حكمةٍ علميّةٍ، وحكمةٍ عمليّةٍ.

أمّا الحكمة العلميّة: فهي المعارف الإلهيّة من الأُصول الثلاثة، وما يرجع إليها من معرفة المبدء، والمعاد، والرسالة، وإلى ذلك يرجع العدل والإمامة. وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: «رحم الله امرأً عرف من أين؟ وفي أين؟

وإلى أين؟»[٢٧].

وأمّا الحِكمَة العمليّة: فهي الأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة المُبيَّنة في الشرع.

فالأولى هي مبنى الحياة الإنسانيّة، والثانية قائمةٌ على ذلك المبنى، وفرع ذاك الأساس، وثمرة تلك الشجرة. وتلك محكمةٌ من حيث البرهان والوجدان والمطابقة لمتن الوجود الخارجي، وهذه محكمةٌ من حيث تكميل الإنسان وتحصيل سعادته المطابقة لفطرته، سواء في ذلك ما له مساسٌ بتهذيب النّفس وما له ارتباطٌ بتدبير المنزل وما له دخلٌ في سياسة المدينة بجميع أبعادها وشؤونها.

وممّا يشير إلى ما بيّناه في الجملة قوله تعالى: ﴿**ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ولا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى في جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً**﴾[٢٨]، مشيراً إلى ما أفاده في عدّة آياتٍ أُخر من: التوحيد، والمعاد، ونُبَذٍ من الأحكام وحِكَمها، حيث إنّ بعضها حِكمَةٌ علميّةٌ، كالتوحيد، وبعضها حكمةٌ عمليّةٌ بشؤونها الشتّى من الوظائف الفرديّة والاجتماعيّة. وهكذا قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ**﴾[٢٩] إلى عدّة آياتٍ أُخر مشتملةٍ على المعارف والأخلاق والأعمال الصالحة - أي الحكمتين العلميّة والعمليّة- وكذلك الانسجام الكامل بينهما؛ لأنّ العلم يهتف بالعمل، والعمل يتبع العلم، ﴿**وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ**﴾[٣٠]، مع أنّ التوحيد ونفي الشرك من معارف الحكمة العلميّة، ونفي الظلم من الحكمة العمليّة، والصناعة لا تقتضي هذا النظم، ولكنّ الهداية الّتي هي الحكمة الحقيقيّة والكوثر الإلهي ممّا يصحّح هذا السياق ويجوّز هذا النظم، فلهذا عبّر

عنه بالموعظة الّتي هي جذب الخلق إلى الحقِّ بما تقشعرّ به الجلود ثمّ تلين بذلك الجلود والقلوب - والسرّ في تجويز هذا السياق: أنّ الكتب الفنّية علميةٌ خالصةٌ، والقرآن الكريم علمٌ وهدايةٌ معاً- وهكذا أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جاءَ عيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذي تَخْتَلِفُونَ فيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطيعُونِ*إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ﴾[٣١]، حيث إنّه علَّم الناس التوحيد والطاعة والتقوى والسلوك على الصراط المستقيم، فبعض ما جاء به وعلَّم الناس إياه حِكَمَةٌ علميَّةٌ، وبعضه حكمةٌ عمليّةٌ.

فتحصّل من ذلك كلّه: أنّ الحكمة نحو علمٍ متقنٍ، ونحو معلومٍ مرصوصٍ، إمّا متعلّقٌ بالعمل، وإمّا متعلّقٌ بالعقيدة، فالحكيم هو المعتقد بالمعارف الحقّة، والعامل بالأحكام الإلهيّة، والمتخلّق بالأخلاق الفاضلة، ولهذا قال رسول اللهﷺ: «رأسُ الحِكمَةِ مخافةُ الله»[٣٢]، أي الخوف العقلي المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ﴾[٣٣]، لا الخوف النفسي، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾[٣٤]؛ إذ لا خوف نفسانيٌّ لمن كان متوكّلاً على الله ومُسلّماً له ومفوّضاً إليه، كما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَريقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى﴾[٣٥]، وقوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣٦]، ولا خوف وهميٌّ ولا خياليٌّ لمن لا يرغب إلّا إليه تعالى ولا يتوكّل إلّا عليه تعالى، ولا يثق إلّا به تعالى: «سبّوح قدّوس ربّنا وربّ الملائكة والروح»[٣٧]؛ لأنّه ملتجأٌ إلى قدرته القاهرة وراضٍ بقضائه المبرم، فهو ممّن طوى الزمان بحاشيتيه: الماضية والقادمة، فلذا لا يؤثّر فيه شيءٌ ممّا مضى حتّى يحزن عليه، ولا شيءٌ ممّا يستقبله حتّى يخاف منه.

-٦-

في الدعوة بالحكمة في قبال الدعوة بالموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن

لا ريب في أنّ الرسول صلى الله عليه وآله يدعو الناس إلى الله الحكيم، ولا سترة في أنّ هذه الدعوة على بصيرةٍ تامّةٍ، إنّما البحث في نهج الدعوة ونحو الهداية إليه تعالى، حيث إنّ لها أنحاءً ودرجاتٍ حسب اختلاف الناس، كاختلاف المعادن ذهباً وفضّةً، وحسب اختلاف الموارد والشؤون وسائر ما له دخلٌ في كيفيّة الدعوة، وشكل الهداية، فلذا قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وجادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدينَ﴾[٣٨]. حيث إنَّ الله العليم بعباده وما لهم من الاستعدادات المختلفة والعقائد والأخلاق الشتّى، أمر رسوله صلى الله عليه وآله بالدعوة إليه تعالى على أحد هذه الأنحاء الثلاثة ولا رابع لها، بمعنى منع الخلو لا منع الجمع؛ أي: لا يمكن الدعوة بما هو خارجٌ عنها لا أنّه لا يجوز الجمع بينها في موردٍ، كما أنّه لا يجب الجمع بينها في كلّ موردٍ، كما توهم.

وسرّ عدم جواز الدعوة إليه تعالى بما هو خارجٌ عن هذه الأنحاء الثلاثة هو ما تقدّم، أنّ الدعوة إلى الله إنّما تكون على بصيرةٍ، فلابدّ وأن تكون بالحقّ ولا تكون بالباطل صرفاً ولا شوباً، وإلّا فتكون عمياء لا بصيرةً.

وبيانه: أنّ الدعوة إنّما هي للاعتقاد والتصديق بالحقّ، كما في الحِكمَة العلميّة من الاعتقاد بالمعارف، أو للنفع والخير كما في الحِكمَة العمليّة في الخُلق والعمل، فلا دعوة عن بصيرةٍ فيما لا تصديق ولا اعتقاد هناك، كما في القياس

الشعري الّذي يدور مدار التخييل لا التصديق وإن يُؤثّر أثره أحياناً، كما لا دعوة عن بصيرةٍ فيما لا حقّ ولا نفع ولا خير هناك، كما في القياس المغالطي المؤلّف من المتشابهات بالحقّ والمشتبهات بالنفع والخير، مع أنّه لا حقّ فيها ولا نفع لها ولا خير. فالدعوة إذا لم يكن فيها تصديقٌ مطابقٌ للحقّ تكون عمياء، وحاشا رسول الله – الداعي إليه على بصيرةٍ– عنها. فيكون مفاد الآية حصر الدعوة الحقّة في هذه الأنحاء الثلاثة بنحو منع الخلو، فالخروج عنها نكبٌ عن الصراط المستقيم. والمهمّ هو بيان هذه الأنحاء، وميز بعضها عن بعضٍ.

وليعلم أنّ هذا التقسيم إنّما هو بلحاظ نهج الدعوة، وأمّا المطلب المدعو إليه فهو في نفسه أمرٌ حكيمٌ لا يفتر ولا يوهن، فترى أنّ بعض ما دعى إليه بالموعظة في موطنٍ يدعو إليه بعينه في موطنٍ آخر بالحكمة، ولعلّه من أجلِهِ يكون القرآن في نفسه حكيماً ليس فيه شيءٌ لا يمكن إقامة البرهان القطعي عليه ولو مع الواسطة.

والحاصل: أنّ الحكمة لكونها كوثراً في نفسها لا تنقسم إلى الحسنة وغير الحسنة، فلذا لم تقيّد في الآية بقيد الحسن؛ لأنّها مؤلّفةٌ من مقدّماتٍ يقينيّةٍ محكمةٍ حسب ما تقدّم، إذ عند تطرّق احتمال الخلاف لا يكون حكمة ومُحكمة لا محالة. فجميع ما له دخلٌ مباشرٌ في الدعوة إلى الاعتقاد اليقيني بالحقِّ –بصورته وسيرته– لا بدّ وأن يكون يقينيّاً لا ريب فيه، كقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[٣٩]، وقوله تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[٤٠]، وقوله تعالى: ﴿**أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[٤١]، وقوله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ واللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[٤٢]، وقوله

تعالى: ﴿أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾(٤٣)، وقوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾(٤٤)، ونحو ذلك ممّا يرجع إلى المعارف الاعتقادية والأُصول الإلهيّة. وقد تقرّر ذلك كلّه عند أهله وفي محلّه. وهو لا يخفى على من راجع احتجاجات المعصومين عليهم السلام في تقرير هذه الآيات لإثبات المعارف الحقّة المبنيّة على العلوم المتعارفة الضروريّة الّتي يضطرّ العقل إلى التصديق بها، كأصل عدم التناقض الّذي قد عدّ مبدأً من المبادئ التصديقيّة، ومن هذا القبيل قول مولانا الصادق عليه السلام في حديث هشام بن الحكم: «إذ لم يكن بين الإثبات والنفي منزلة»(٤٥)، وقول مولانا الرضا (عليه آلاف التحيّة والثناء): «ألا تعلم أنّ ما لم يزل لا يكون مفعولاً، وحديثاً وقديماً في حالةٍ واحدةٍ»(٤٦).

وأمّا الموعظة، فلا أثر لها في المسائل النظريّة الحقّة الّتي لا أثر عمليَّ لها، كالرياضيّات، وإنّما محلّها المسائل الاعتقاديّة الّتي لها مساسٌ بالأخلاق والأعمال. وإذ لها شرائط، من حيث اتّصاف الواعظ بما يعظ؛ لأنّ من لا يتّعظ لا ينفع لحظه، ومن لا ينفع لحظه وسيرته لا ينفع وعظه ولفظه، وهكذا من حيث فصاحة الكلام الوعظي وبلاغته، ومن حيث كونه قولاً ليّناً لعلّ المخاطب يتذكّر أو يخشى، وغير ذلك ممّا له دخلٌ في حسن الأثر تنقسم الموعظة إلى الحسنة وغير الحسنة. وقد أُمر النبيّ صلى الله عليه وآله بالدعوة إلى الله تعالى على نهج الموعظة الحسنة، حتّى ينجذب المدعو ويتّعظ المستمع فيسلك سبيل ربّه طوعاً، ويدعوه خوفاً وطمعاً، ويذكره في نفسه تضرّعاً وخيفةً، ويسبّحه أطراف النهار وزلفاً من اللّيل، كما أمر الأنبياء الّذين من قبله صلى الله عليه وآله أيضاً بذلك.

وأمّا الجدال فهو حوارٌ خاصٌّ عند المناظرة، ولا أثر لـه أيـضاً في المـسائل النظريّة الحقّة الّتي لا يكتفي فيها بغير اليقين المحض، وإنّما محلّه المـسائل الّتـي لها مقدّماتٌ مسلّمةٌ للناس أو للمخاطب وحده، وكان ترتيـب القيـاس منهـا من جهة تسلّمها عند الجمهور أو عند المخاطب وحـده. وهـي إمّـا أن تكـون مسلّمةً عند الجمهور، سواءٌ كانت حقّةً أم لا، كقولـه: «اُنـصر أخـاك ظالمـاً أو مظلوماً»، إذ المعتبر عندهم هي الأخـوّة لا العـدل والقـسط. وإمّـا أن تكـون مسلّمةً عند الجمهور مع كونها حقّـةً أيـضاً، كحـسن العـدل، وقـبح الظلـم، ونصرة الأخ بدفع الظلم عنه أو بكفّه عن الظلم، كما فسّر به ذاك القـول - أي انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً-. فالقياس المؤلّف من القسم الأوّل جدالٌ فاسـدٌ ومراءٌ كاسـدٌ، ومـن القـسم الثـاني جـدالٌ حـسنٌ ومـراءٌ ممـدوحٌ، وقـد أمـر النبيّ صلى الله عليه وآله بخصوص هذا القسم فقط في الدعوة إلى الله.

وممّا جمع فيه بين أقسام الدعوة من: الحكمة، والموعظـة الحـسنة، والجـدال الحسن، أمر المعاد، والحشر، وقيام الساعة. فتحدّث القرآن عن الحشر ودلّ عليه بالبرهان اليقيني، كما في قوله تعالى: ﴿**وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ والْأَرْضَ وما بَيْنَهُما بـاطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾[٤٧]، وقوله تعالى: ﴿**أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ**﴾[٤٨]، إذ الباطل وكذا العبـث ممتنـعٌ عقلاً بالقياس إليه تعالى، ومن المحال أن يفعل هو تعالى فعلاً لا غاية له أصلاً، أو لا غاية حكميّةً وعقليّةً له، فهذه دعوةٌ بالحكمة.

وأمّا الدعوة إليه بالموعظة الحسنة فهـي عـدة آيـاتٍ تـدعو إليـه بلـسان الترغيب والترهيب، والتبـشير والإنـذار، ونحـو ذلـك ممّـا يوجـب الاتّعـاظ وانجذاب العقل العملي.

وأمّا الدعوة إليه بالجدل الأحسن، ففي الآيات الّتي يستدلّ فيها عليه بكون الإعادة أهون من الإبداع وأنّ الّذي يقدر على النشأة الأُولى قادرٌ على الثانية بطريقٍ أولى، وما إلى ذلك من الأقيسة الّتي يكون حدودها الوسطى مسلّمةً عند الجمهور، مع أنّ القدرة المطلقة لا يتصوّر فيها الميز بين الإبداع والإعادة حتّى يكون بعضها أهون وبعضها سهلاً وبعضها صعباً وغير ذلك.

ومن هذا القبيل الاستدلال عليه بأدلّةٍ ثلاثةٍ في خاتمة سورة يس، كلّها مجادلةٌ بالتي هي أحسن(٤٩)، حسبما فصّله مولانا الصادق عليه السلام حيث قال عليه السلام: «وأمّا الجدال بالّتي هي أحسن فهو ما أمر الله تعالى به نبيّه أن يجادل به من جحد البعث بعد الموت، وإحياء العظام، فقال الله حاكياً عنه: ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وهِيَ رَمِيمٌ﴾(٥٠)، فقال الله في الردّ عليه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَليمٌ * الَّذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾(٥١)، فأراد الله من نبيّه أن يجادل المبطل الّذي قال: كيف يجوز أن يبعث هذه العظام وهي رميمٌ؟ قال: فقل: ﴿يُحْيِيهَا الَّذي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٥٢)، أفيعجز من ابتدأه لا من شيءٍ أن يعيده بعد أن يبلى، بل ابتداؤه أصعب عندكم من إعادته، ثمّ قال: ﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً﴾؛ أي: إذا كمن النار الحارّة في الشجر الأخضر الرطب، ثمّ يستخرجها، فعرّفكم أنّه على إعادة ما بلي أقدر، ثمّ قال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾(٥٣)، أي: إذا كان خلق السموات والأرض أعظم وأبعد في أوهامكم وقدركم أن تقدروا عليه من إعادة البالي، فكيف جوّزتم من الله خلق هذا الأعجب عندكم والأصعب لديكم، ولم تجوّزوا منه ما هو أسهل عندكم من إعادة البالي؟ – قال

الصادق عليه السلام -: فهذا الجدال بالّتي هي أحسن لأنّ فيها قطع عـذر الكـافرين وإزالة شبههم»(٥٤) إنتهى موضع الحاجة.

فتبيّن أنّ الحكمة كوثرٌ، وأنّها نحو علمٍ خاصٍّ بمعلومٍ خاصٍّ، وأنّها علميّـةٌ وعمليّةٌ، وأنّها متمايزةٌ عن قسيميها من: الموعظة الحسنة، والمجادلة الحسنة.

خاتمة

فإذا تحقّق أنّ الحكمة ما هـي، وأنّها كـوثرٌ وخـيرٌ كثـيرٌ، يلـزم تحـصيلها والاتّصاف بها، والعمل بمقتضاها اعتقاداً وخلقـاً وعمـلاً، فـلا كـمال لمـن لم يُحقّقها ولا لِمَن لم يتحقّق بها بعد التحقيق. وقـد ورد في نـصوص النبـيّ صلى الله عليه وآله: «من أخلص لله أربعين يوماً فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه عـلى لـسانه»(٥٥). وقد أُمر في عـدة آيـاتٍ بـالإسراع إلى الخـيرات - الّتـي مـن أجَلّهـا وأرفعهـا الحكمة- كما قال تعالى: ﴿يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ﴾(٥٦)، وأُمر بالاسـتباق إليهـا؛ أي: الخيرات الّتي من أعظمها الحكمة، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَـيْراتِ﴾(٥٧)، وقال تعالى: ﴿وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِـالْخَيْراتِ﴾(٥٨)، وغير ذلك من الـشواهد في الترغيـب إلى الحكمة بعنوان كونها من الخيرات.

اللّهمّ ارزقنا الحكمة الّتي أنزلتها بـالوحي عـلى أنبيائـك، واجعلنـا ممّـن يحقّقها ويتحقّق بها ويعمل بها، كما أمرت بذلك على ألـسنة رسـلك، واجعـل خواتيم أُمورنا خيراً بمحمّدٍ وآله.

وكان ذلك يوم الجمعة، الرابع عـشر مـن شـعبان المعظـم ١٤٠٠، عنـد ذكرى ميلاد إمام العصر الحجّة بن الحسن المهدي، روحي وأرواح العالمين لـه الفداء، في عشّ آل محمّد قم المحميّة.

****

الهوامش

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٢) كما ورد في سورة البقرة، الآية ٢٦٩: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثيراً﴾.

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٧.

(٤) اقتباس من القرآن، سورة النجم، الآية: ٣٠.

(٥) اقتباس من القرآن، سورة الزخرف، الآية: ٤.

(٦) اقتباس من القرآن، سورة الدخان، الآية: ٤.

(٧) كما ورد في سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٨) كما ورد في سورة محمدﷺ، الآية: ٢٠.

(٩) كما ورد في سورة يونس، الآية: ٦١، وسورة سبأ، الآية: ٣.

(١٠) انظُر: مفردات: ٢٤٨-٢٥٠ (ح ك م).

(١١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(١٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٠.

(١٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(١٤) سورة النساء، الآية: ١٩.

(١٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(١٦) سورة القصص، الآية: ٧٨.

(١٧) من لا يحضره الفقيه، ٤: ٣٧٦؛ تفسير نور الثقلين، ١: ٢٨٧.

(١٨) اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى﴾ (سورة النازعات، الآية: ٤٠).

(١٩) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.
(٢٠) اقتباس من قوله تعالى ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ﴾ (سورة الشورى، الآية: ١٣).
(٢١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.
(٢٢) سورة النساء، الآية: ٥٤.
(٢٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.
(٢٤) سورة لقمان، الآية: ١٢.
(٢٥) مجمع البيان ٧-٨: ٤٩٣؛ تفسير نور الثقلين، ٤: ١٩٦.
(٢٦) اقتباس من القرآن، سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.
(٢٧) الحكمة المتعالية، ٨: ٣٥٥.
(٢٨) سورة الإسراء، الآية: ٣٩.
(٢٩) سورة لقمان، الآية: ١٢.
(٣٠) سورة لقمان، الآية: ١٣.
(٣١) سورة الزخرف، الآيات: ٦٣-٦٤.
(٣٢) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧٦؛ تفسير نور الثقلين ١: ٢٨٧.
(٣٣) سورة النازعات، الآية: ٤٠.
(٣٤) سورة النمل، الآية: ١٠.
(٣٥) سورة طه، الآية: ٧٧.
(٣٦) سورة يونس، الآية: ٦٢.
(٣٧) تهذيب الأحكام ٢: ١٢٣؛ بحار الأنوار ١٨: ٣٥٦.
(٣٨) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٣٩) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٤٠) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.
(٤١) سورة الملك، الآية: ١٤.

(٤٢) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(٤٣) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٤٤) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٤٥) التوحيد (للصدوق)، ٢٤٦.

(٤٦) المصدر، ٤٥٠.

(٤٧) سورة ص، الآية: ٢٧.

(٤٨) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٤٩) اقتباس من القرآن، سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٥٠) سورة يس، الآية: ٧٨.

(٥١) سورة يس، الآيات: ٧٩-٨٠.

(٥٢) سورة يس، الآية: ٧٩.

(٥٣) سورة يس، الآية: ٨١.

(٥٤) الاحتجاج ١: ٢٥-٢٦؛ تفسير نور الثقلين ٤: ١٦٣.

(٥٥) بحار الأنوار ٦٧: ٢٤٩.

(٥٦) سورة آل عمران، الآية: ١١٤؛ سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

(٥٧) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٥٨) سورة فاطر، الآية: ٣٢.